سفر في الذاكرة (احتراق العصافير)

© منشورات الحضــارة
ص . ب 04 (A) بئر التوتة -الجزائر 16045
هاتف/فاكس: 46. 70. 41 (021)
البريد الإلكتروني: kheddoucir@yahoo.com
الإيداع القانوني: 2623- 2015 ردمك: 978-9931-357-12-4

لوحة الغلاف للرسام نصرالدين ديني

رابح خدوسي

سفر في الذاكرة

(احتراق العصافير)

قصص قصيرة

الطبعة الثانية

منشورات الحضارة

2015

الإهداء

إلى

الوالدين الكريمين، مع حبّي وعرفاني

ولدكما

ذاكرة الليل واحتراق العصافير

الشارع الطويل يخترق المدينة المحتلة... الساحة فسيحة كليالى الصيف، الممرات تكبر.. تحمل في جوفها هموم الرياح المحتوية آلاف الآهات... أعمدة الكهرباء ترتعش من البرودة التي حملها التيار عبر المياه والأوحال، ، ، شرفات المنازل تبكي أيامها ، ، مضت ألف ليلة وليلة وصفير الحبال لم ينقطع، ، الأفاعي تمزج لعابها في الدواء لعلاج الطاعون الذي استبدّ بالأطلال الحالمة، المحترقة ظمأ...

الانتفاضة تزداد من يوم لآخر... أبواب الدكاكين موصدة كتب عليها بالشمع الأحمر (ممنوع البيع عدا في المناسبات وأيام الحصاد وليالي الشتاء...).

شقوق الجدران في مناجاة... تخاطب بعضها بالزفرات وأبناء الحجارة يهتفون... فلسطين القدس... والهلال...

- عمّي يا سين، عمي يا سين.

يلتفت الشيخ نحو مبعث الصوت وعيناه على نهاية عصاه.

- عمي ياسين، ما هي الأخبار؟

ينظر الشيخ ياسين متفقدا المكان ثم يقول:

- الأرض تدور... والتفاح يزهر..

ويواصل سيره بين الأزقة... في الدرب المتواصل فيلاحقه صوت آخر:

- عمي ياسين، زوّدنا بالليمون والمقابل كالعادة.

اهتزّت الأرصفة واصطك الزجاج والأسنان لاقتراب الأزيز، فجثا الشيخ ياسين على ركبتيه ينظر إلى السماء، ، ، وتمرّ عربة تتبعها فرقة عليها خوذ كنكع الأمانيت (الفطر السّام).

الحي يصدع بالنباح، والمصابيح يخنقها الدخان الأزرق... احتضنت الأمهات الصبيان، وصلّى الأطفال مردّدين دعوات الرحمة على شهداء الفداء وعلى الشيخ ياسين، ،



ويحلّ الظلام ممزوجا بالصقيع الأحمر فتعتزل عائلة ياسين الكلام، ويرسل الفلاّح إلى بستانه نفحات:

- أيتّها الجذور المتربة، هل حان ميعاد الحمل... لقد صنعوا من فروعك التوابيت! هل حان ميعاد الحمل؟.

وتمتدّ الجذور لتخترق القبور، في المنافى والشواطئ فيرتاح الفلاح ويتمدّد على حصيره المتآكل الأطراف...

يرضع الصبي حليبا أحمر من صدر أمه المنتفخ فتجحظ عيناه وينتفض على ثيابها الممزقة، ثم يلعن كلّ الأطفال الذين شاركوه حبّ أمه.

وتسكن الفتاة في الزاوية الشرقية للغرفة تكمل حياكة الصدار الذي وعدت خطيبها الفدائي به...

يتلعثم الصبي في سؤاله:

- أبي، أبي أين جدي...أين جدي؟؟

وتلتقي الأنظار والمآقي، يتناسى الفلاح السؤال ويتذكّر الحقل والأشجار والعصافير المعشعشة، التي فضّلت الاحتراق على فراق فراخها، والرصاصات التي اخترقت خليّة النحل االمثبتة في جذع شجرة الزيتون، ،

وتضمّ دلال أخاها "وائل" ويدها تمسح عن خدّه المخاط الجاف، أحسّ الصبي وائل بمتعة، وامتدت أنامله تتحسّس كفيها الناعمتين، كانت يده بينهما كالعصفور الصغير، تذكّرت خطيبها والرعشة الشاملة التي اعترتها عندما مسك بيديها مودعا.

تطفأ الأضواء قبل موعدها المحدّد لتستسلم للدجى الحالك الذي اقتحم المدينة دون استئذان، بعد منتصف الليل يُطرق الباب بشدّة، فيصرخ الصبي هلعا ويلتصق بجسم أمّه يريد العودة إلى أحشائها.

وتهتزّ الباب مرة أخرى فيتأكد صاحب الدار أن (شهريار)

في الانتظار، تمرّ في مخيلته صورة دلال باكية وهي تقول:

- أبي العزيز، لا تتركني للأنذال، لقد وعدت خطيبي بالصدار.. إنه العلم الوطني، ، ، لا تتركهم يمزّقونه.

حطّموا الباب داخلين تسبقهم الأضواء الكاشفة، وأرعد الأول:

- لماذا لا تفتح الباب؟

- لأنكم غرباء...

تقدّم الثاني تسبقه فوهة المسدس:

- أين ابنتك يا ابن ياسين؟

- عند خالتها.

- لا تراوغ... واختر بين أمرين ابنتك أو حياتك؟

يقف الرجل منتصبا يخاطب الثلاثة:

- لقد دستم كرامة وطني وأنا صغير، واليوم لن تتمكنوا من طعن شرفي مادمت واقفا على رجلي.

قال الثالث والشّرر يتطاير من عينيه:

- ستندم أيها الـ...

قاطعة:

- أرحب بكل ندم على أن لا أبيع ابنتي للجزارين في سوق الليل... بل انتم ستندمون.

قهقه قائدهم قائلا:

- لقد بعنا المسيح بقطع من الذهب ولم نندم، ، هيا فتشا المنزل.

- أحس صاحب الدار برائحة العصافير في احتراقها، وتمنى من الأرض أن تبتلعه قبل رؤية ابنته دلال تذبح في فراشها الطاهر...

- اندفع الجنديان إلى غرفة دلال في وحشية، صادفهما تيار الهواء البارد المنبعث من النافذة، ، تسمّرت أرجلهم في أرض الغرفة، ،

كان الفراش الدافئ خاليا والنافذة مفتوحة عن آخرها. اتّقدت نار الخيبة في أعينهم فبحثوا عن سبل الإطفاء...

وأمسك الصبي عن البكاء في الهزيع الأخير من الليل واستسلم للكرى يتوسط جثتي والديه الباردتين.



وجاء فجر الشهر الثامن بعد الحادث والمؤذن يبشر بعودة شيخ المدينة ياسين، فقامت المدينة لتراه بلحيته وعباءته البيضاويين والسبحة البنية المعلقة في ذراعه.

تكلّم كثيرا على غير عادته، عن الحب والإنجاب، والليمون والزيتون... ثم أخرج صدارا صوفيا وألبسه لطفل صغير كان جالسا قرب الإمام، قائلا:

- أشهدوا لقد بلّغت أمانة الشهيدة (دلال) وأهديت الصدار أول طفل صادفني.

قالوا الكثير الكثير عن البطلة (دلال) وعمليتها الجريئة ضد المحتلّين، ولم ينتبهوا إلى الدمعتين الكبيرتين اللتين كانتا تغادران عيني الطفل (وائل) وتسقطان على المثلث الأحمر الذي يتوسط الصدار.

العودة إلى الذات

كانت كمية القهوة تقل في الفنجان شيئا فشيئا، الفقاعات تطفو على سطحها كأنها أمواج في بحيرة ضيقة، تضطرب كلما لامست شاربيه، فتبتل شفتاه وأسنانه، وتستمد ملامحه من لونها الفاحم القدرة على التأمل والتفكير في أيامه السالفة وكم سكب خلالها من قهوة في وعائه.

كرّر قوله عدة مرات:

- شربت نهرا من القهوة ولم أصل إلى فكرة واحدة

تريحني في هذه الحياة.

الأحلام تحترق في ذاكرته احتراق السيجارة أمام منخاريه الواسعين، يتحدى المرئيات ويراهن الزمن، ثم يبتسم في حسرة، تسرى حرارة الابتسامة في أوصال زوجته فتخاطبه:

- هذه المدينة يا علي (اخدم بكري وإلاّ روح تكري).

ينظر إليها نظرة بلهاء قائلا في نفسه:

- لويزة زوجتي أصبحت منذ أسبوع فقط من سكان الحضر، تتنفس هواءهم في صمت، وكأنها عاشرت المدن منذ هجرة آدم وحواء إلى الأرض...!

- كيف حال البنت حليمة؟

- هي أمامك في الفراش، لم تنخفض درجة الحرارة عندها، مسكينة كادت أن تلفظ أنفاسها أثناء الليل؟

ويسألها الأدب منزعجا:

- هل كانت حالتها خطيرة إلى هذه الدرجة؟.

- لا، ليس بسبب المرض، رأس أخيها عاشور الذي

توسّد صدرها مدة من الليل.

يتنفس الأدب الصعداء وعيناه تتنقلان بين أبنائه النائمين على أرض الغرفة، ثم يقول متنهدا:

- العائلة كبرت يا لويزة، والغرفة ضاقت.

وترد عليه زوجته في دلال مقصود:

- وستكبر أكثر، ثم إلى متى ونحن كالسمك المصبّر، لقد آن الأوان لتفعل ما فعل جارك...

سأل منفعلا:

- ماذا فعل أيتها المرأة؟

- ألا ترى الفيلا والسيارة ووو...؟

قال لها زوجها:

- لا تتسي يا لويزة أن جارنا من مجاهدي حرب التحرير.

- وأنت ألست مجاهدا؟!

سأل علي نفسه وذكريات الثورة تمر أمامه:

- أين هم المجاهدون الذين كانوا يتردّدون على البيت

طيلة الحرب، الذين جاؤوا أول مرة إلى قريتنا وقالوا:

- إننا نحارب الكفار من أجل العيش في ظل الكرامة والحرية،

هل استشهدوا جميعا؟ غير معقول، إنهّم كثيرون، ما هذه التناقضات التي أراها تتبت على صدر أمتي، أين هي العدالة الاجتماعية التي تمنّاها كل شهيد قبل وفاته، ، ،

كرّرت سؤالها:

- ألست مجاهدا، ألم تكن ممن حملوا الثورة على أكتافهم؟!

- ليست لي وثيقة تثبت ذلك يا زوجتي العزيزة.

- ومعارفك القديمة؟

- آه منك ومن أسئلتك التافهة المتكررة، ، قلت لك مرارا:

- اصبري وصابري، لقد كوّنت ملفا للانضمام إلى صفوف المجاهدين في سبيل الحق.

قالت لويزة مستبشرة:

- إذن سنشتري سيارة ونسكن "فيلا" مع حديقة عن قريب.

- إنشاء الله، وإن لم يكن ذلك فسيعوضنا الله خيرا منه في الجنة.

ركّزت بصرها في عينيه مخاطبة إياهما في صمت، ثم ما لبث لسانها أن تحرك قائلا:

- اليوم الاثنين، هل نسيت السوق الأسبوعي بمدينة بوفاريك؟ لقد أصبح قريبا منك الآن، ، ،



(سامحني، ، ما بك؟ ألا ترى؟ زد، إلى الأمام، ،)

كانت هذه الكلمات تخترق مسمعيه كلما امتدت خطاه نحو ساحة السوق، استعذبها وحشر نفسه في (كرنفال) من الأمواج البشرية، رأى نفسه صغيرا صغيرًا..

الـدروب كـثيرة وعبـاد الله أكثـر، دفعتـه الأجـسام المزدحمة إلى الاقتراب مـن أول صـوت ينـادي في مـدخل الـسوق الأسبوعي:

- (لكل داء دواء، هذا قرص يسكت الضرس، جرب، جرب بلا فلس).

فرح علي وقال يحدث نفسه:

- هـكذا يا شاطر، عالج مجانـا حتـى في الـسوق، رغـم انعدام المرض!

تحرّك إلى اليمين ثم إلى اليسار وقال:

- لأرى هذه المجموعة حول ماذا تلتف، ألقى السلام فلم يلـق ردّا ، لأنّ الجمـع كـان منـشغلا برؤيـة المـشهد الثـاني مـن مسرحية سوقية واقعية.

(الأشخاص... مجموعة من الشباب).

- قلت له، هيا أعد الساعة إلى مكانها.
- ألم تصدق، قلت لك بأنّني أعدتها منذ حين.
- انزل بها من السماء، انتظر، ، (يحاول تفتيشه)

- ليس من حقّك تفتيشي، من تكون أنت؟!

هزّ علي رأسه قائلا في حسرة:

- أطفال اليابان عندما يلعبون يصنعون الساعات الالكترونية وشبابنا يتعاركون من أجلها!

النداءات تدعوه من كل صوب كأنها إذاعات التبشير العالمية...

- الحوت موجود إذن البحر قريب.

قال علي العبارة السابقة في بلاهة عجيبة، ثم أردف سائلا في تعجب:

- لكن من أين تتغذى هذه المخلوقات البشرية؟

- أين تعمل كلها؟

الحمد لله لست البطّال الوحيد، لكن النقود كيف يحصلون عليها يا ترى؟ أرى الأمواج البشرية في كل شارع تزاحم العمران، وكأن أهل هذه البلاد في استقالة جماعية، أوأنهم يشيّعون جنازة ميت اسمه العمل...؟

أه، لو يعلمون بأن العمل شرف وعبادة لتحققت المعجزة.

تقدّم منه طفل في سن ابنه:

- عمي، كيس، كيس بدينارين فقط.

نافسه طفل آخر:

- كيسي هذا أجود الأكياس، يحمل كثيرا من الأشياء.

أشار علي بيده قائلا:

- لا ، ، لا أريد.

وجد نفسه في مهرجان جديد ، في سوق الخضر، صراخ كصراخ الموتى يوم البعث، بدأ العرق يسيل من جبينه على شعر لحيته الظريفة ، ، امتلأ شهيقه بالغبار الممزوج بدخان احتراق البنزين في محركات السيارات، أحسّ بأنه في بداية الاختناق.. اشرأبّ عنقه يبحث عن شيء ما ، ثم توجه مسرعا يشق الصفوف ويقتحم الأكتاف في حركة غريبة حتى وصل إلى مكان خال من وطأة المشاة، وجد كهلا يتربع على حصير

فتذكر وصية ابنه قبل يومين:

- أبى، اشتر لي كتابا عندما تزور سوق الكتب...

فقال للكهل:

- أعطني كتابا لطفل في السنة الأولى.

سلّم له بائع الكتب كتيبا صغيرا أصفر اللون، كان عنوانه(قرعة الأنبياء).

- امتقع لون وجه علي فأعاد الكتيب لصاحبه ويده تبحث في جيوبه عن شيء قد أفل، كرّ راجعا من حيث أتى، ينظر في الأرض المغطاة بالأقدام وإلى الوجوه فيراها وكأنها مغطاة بلباس التهمة، كان يقول في نفسه:

- هذا، لا، هذا سرق دراهمي، لا هو...

عاد إلى كل مكان مرّ به، لم يعثر على شيء، استوقف انتباهه شيخ ذو لحية كثّة، عليه ثياب بالية، يمشي في هدوء مشيرا بعصاه إلى الباعة ولسانه يردد في صوت جنوني:

- (جاءتك الموت يا تارك الصلاة، جاءتك الموت يا...)

شعر علي بالغربة ثم سارع إلى تنفيذ فكرة خطرت على باله:

جلس أمامها القرفصاء، ونظر نحو يدها التي كانت تحمل سبحة صغيرة، بنية اللون، أحلامه تتراصف في مخيلته تراصف حبّات السبحة في الخيط، قصّ لها ما وقع له فبدأت تنظر فأله، وتقرأ طالعه:

- ستعود إليك درهمك، ستعود إليك إذا اشتريت هذا الحرز على بركة سيدي صالح.

- قبض علي على يديها بقوة وفرائصه تهتزّ انفعالا لأمر عجيب:

- سيدي صالح، هل تعرفين مكانه؟

نطقت متنهدة في فخر ممزوج بالحسرة:

- أنا، أنا ابنته الوحيدة.

وقف مندهشا:

- أنت، أنت بنت سيدي صالح حقا، يا الهي، صحيح أنت أمي التي قالوا أن فرنسا ألقتها في الوادي الكبير.

لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى وجد علي نفسه مع أمه وزوجته وأبنائه في طريقهم عائدين إلى قرية سيدي صالح، ، ، وصار يردّد عندما وصل إلى مشارفها كلمات الشيخ:

- (جاءتك الموت يا تارك...)



أحس علي بيد ناعمة تمر على جبينه في هدوء ففتح عينيه قائلا في فزع:

- أين أنا؟ من جاء بي إلى هنا، ، ، هل كنت في حلم؟!

كانت زوجته أمام سريره تقول له في حيرة:

- قم يا علي، إن كبش العيد قد فرّ من الحمام وهو على سطح العمارة، حاول أن تدركه قبل أن يلقي نفسه من عل.

- نهض علي من فراشه بسرعة وخرج إلى شرفة شقّته، رأى الكبش يتخبط في دمائه وسط الشارع وجموع الناس

حوله، وسمع الأطفال يرددون:

- كبش علي انتحر.

تأمل علي ذلك المنظر في صمت، رأى فيه المتاعب التي تحملها المدينة في جوفها المتعفن، وتذكّر بيته الريفي الفسيح وبستانه اليانع، فقرّر الهروب من المدينة الغاضبة والعودة إلى ذاته.

جريمة بين الورود

- أنت مشارك في الجريمة، قتلت فلذات كبدك.

تنقل عمّار بين أجنحة المستشفى يبحث عن نفسه وقد استعاد قليلا من الإدراك الحسي والنشاط الجسمي، بدأ شيء من النسيان يتسلل إلى ذاكرته ليبدّد الصور الحزينة التي علقت في خزينتها، غير أن كلمات المحقّق الذي زاره في المستشفى كانت قد سكنت تفكيره وصارت كابوسا يطارده في كل وقت.

- أنت مشارك في قتل بنيتك يا عمّار.

عمّار يردد هذه العبارة القاسية من حين لآخر ليبدأ هذيانه التساؤلي، فينتهي بتناول أقراص مهدئة توقف ثورته في وجه الأحياء، الغضب والندم يمتزجان فيغرسان فيه حزنا عميقا عندما تصارحه نفسه بأن ابنته ليست أول ضحية له.

منذ بضع سنين عاد الجيلالي من وراء البحر، قاد سيارته في زهو بالغ وخرج من رحاب الميناء الذي كان يعجّ بالسيارات المحمّلة بالبضائع المختلفة القادمة من أروبا.

قال الجيلالي محدّثا نفسه التوّاقة في زهو بالغ:

- أعود من الخارج والسيارة ترافقني، هذه أمنيتي قد تحقّقت، ولا تهمّ السبع سنوات التي قضيتها هناك.

استقبلته مدينته الصغيرة بالترحاب والإعجاب كأنه بطل دحر الأعداء في حروب طاحنة، أو عالم رحّالة عاد من رحلة طويلة يحمل أسرار الأمصار... تحدث السكان ليلتها عن الجيلالي و"المرسيدس" الزرقاء بينما كان يسأل هو أترابه في الحي عن أعمالهم وما يكسبون فعرف أن يوسف مزارع ومراد

أستاذ وعمّار ممتحن في السياقة.

اقترب من عمّار قائلا في تملق ساذج:

- إنك تشتغل مهنة ممتازة.

رد عليه عمّار على الفور مبتسما:

- وأنت تملك سيارة فاخرة.

- هل أعجبتك يا عمار؟

- أجل، وقد عزمت أن تكون سيارتك صاحبة الورود يوم زفافي.

سرّ الحاضرون بالسيارة الزرقاء التي اكتنفت العروس البيضاء يوم الفرح، لم يتمالك عمّار نفسه من الفرحة فاعترف لأصدقائه بأن مساعدة الجيلالي لن ينساها ما دام حيا، وزاد في ابتهاجه الهدية التي قدمتها له زوجته بعد سنة، كانت ثمرة متحركة سمّاها عمّار(منى)، جميلة لطيفة، يكاد وجهها يضيء نورا، وصوتها المترجرج ينبعث كأنه لحن ملائكي ينساب من السماء، فيملأ البيت رحمة ومودة وسعادة لا مثيل لها.

غاية ممتعة أن يطمئن الإنسان إلى نفسه المضطربة، وأن يستعذب طعم السعادة التي لا تستقر في مكان، كأنها نسيم يمرّ دون توقف، أوطائر خفيف الحركة، يمرّ أمامك مسلّما ومودعا في آن واحد.

الفكرة تنفّذ ما دام التصميم عليها أمر محقق، لا تراجع فيه، جاء الجيلالي وهو يقول ذلك في نفسه المتفائلة بتحقيق غايته مهما كان نوع الوسيلة:

- لقد عزمت على أداء امتحان السياقة ياعمّار.
- ألم تحصل عليها من قبل؟
- أريد شهادة في الوزن الثقيل وأرجو المساعدة.
- لا تخش شيئا، بلا رجاء فأنت فائز من الآن.

رأى الجيلالي المستقبل يبتسم له، وغمره الفرح فأوسع عمّار تقبيلا...ثمّ قدّم له ملفه الهزيل، وبعد أيام معدودة جاء دوره في الامتحان، إثر رسوب الكثير من المتدربين الذين انصرفوا ووجوههم مسودة من الغيض.

سأل وهو يغلق باب شاحنة الامتحان:

- لماذا يا عمّار، تتعمد إخفاق الأكفاء من المترشحين؟

- لأنهم تعمّدوا غلق جيوبهم قبل الامتحان، ، هيا لنبدأ الأسئلة:

- هل تتذكر بأنك صاحب السيارة التي قدمت عليها أم منى؟

الجواب:

- نعم يا سيدي المهندس، ونوعها "مرسيدس".

ثم أردف الجيلالي جوابه بابتسامة عريضة، فاستفسره عمّار قائلا:

- السؤال الثاني (لماذا تبتسم الآن؟)

- لأنني أجبت عن السؤال الأول بنجاح.

ربت عمّار على كتفه قائلا:

- نكتة قديمة ومع ذلك فاني أهنئك، تعال معي الآن نشرب كأسا صفراء نخب حصولك على رخصة السيّاقة.



شرع الجيلالي في عمله الجديد بإحدى المؤسسات يسوق الشاحنة، كما شرعت (منى) صغيرة عمّار، ممتحن رخصة السياقة، في عامها الدراسي الأول.

اليوم عطلة والجيلالي يتنقل هنا وهناك، يحمل على الشاحنة بعض اللوازم الخاصة، شرطة المدينة ترصده في صمت.

وفي ابتسامة الصبح خرجت فتاة في عمر الزهور مبتسمة للحياة المجسدة على وجه صاحب الدكان، وقبل أن تعبر الممر الأبيض عائدة إلى البيت مرّت عليها الشاحنة الهاربة من مطاردة الشرطة، التي كانت تحاول إيقافها.

تضحك الدنيا للإنسان الغافل أياما وأعواما، وفي ساعة يأتي القضاء بغير لطف فيتغيّر الزمن وتمحو لحظة الشقاء السوداء بياض عقود من العمر.

لم تعد(منى) بالحليب إلى البيت فخرج أبوها عمّار يستعجلها لكنه لم يجد سوى الحليب الساري ملونا بالحمرة وغبار عجلات شاحنة الجيلالي، ، وشرب عمّار مرارة الخبر المريع كما شرب قبل ذلك نخب منحه الجيلالي رخصة السيّاقة...!!

ثمن المخاطرة

الساعة السابعة تعلن بدقّاتها موعد الاستيقاظ، نهض الطفل زهير من فراشه يتمايل كشجيرات الأرصفة في وجه الريح.

كان جسمه يشكو التفكك وأضلاعه تعاني التمزّق الذي فرضته البرودة طوال الليل...

نظر نحو الجميع وهم يغطّون في نوم عميق، كان منظر الأب النائم وسط القطط الأربعة يثير شجون الطفل زهير، الذي وقف أمام المرآة يتأمل جسمه وما ظهر عليه من رسوم خرائط

متشابكة، وانحناءات شبيهة بتضاريس الحصير الذي نام عليه...

فرّك حاجبيه ابتغاء طرد النعاس، الذي ما زال يراوده، والتقط حبة تمر من أرض الغرفة واضعا إياها في فمه الصغير، ثم جمع أدواته المدرسية المبعثرة وخرج مسرعا وقطرات المطر تطبع قبلات لطيفة على وجهه.

قبل أن تحين فترة الاستراحة تحرّكت معدته تطلب الأكل، وكالعادة استلم من زملائه التلاميذ ما يسدّ به رمقه من الجبن والشكولاته..

تنهّد زهير من أعماق نفسه التي كانت تهفو إلى ابتسامة ألفها من أحبّ الناس إليه ولم يجد لها بديلا بعد غيابها المفاجىء.



(من أجل سلامة زهير واستقامته التمس من المحكمة...)

بدأ الأب كلامه بهذه العبارة قبل أن تقاطعه الأم قائلة:

- سيدي القاضي، القانون يمنحني الحق في حضانة ابني ولذا أرفض أن يعيش زهير بعيدا عني.

هرع الأطفال إلى الأقسام فارين من المطر الذي داهمهم في الساحة، فاستأنف المعلم الدرس سائلا:

- من يغسل الملابس وينظفها؟

رفع التلاميذ أصابعهم للإجابة عدا زهير الذي كان شارد الذهن يفكر بعيدا، حتى انتبه معلمه إلى حاله، فسأله عن قصد:

- زهير، من ينظّف ملابسك؟
- أبي هو الذي ينظّف ملابسي.

يضحك الأطفال فيحمرّ وجه زهير خجلا ويبتسم المعلم مستفسرا:

- وأمك ماذا تفعل؟!

سؤال تردد في أعماق زهير الذي سأل نفسه في الحين:

- لماذا هجرتنا أمي؟ ماذا تفعل يا ترى؟!



تقدّم الأب نحو هيئة المحكمة يحدوه الانتصار، قائلا في تحدّ:

- وأنا أرفض أن يعيش ابني مع زوجها الأجنبي عن الأسرة...

وقاطعته مرة ثانية:

- وأنت أيضا مقبل على الزواج.

واصل الأب كلامه دون أن يلتفت صوبها.

- زد على ذلك أنها تسكن بالقرب من الطريق السريع.

واجهته الأم غاضبة وقالت في انفعال:

- لكني لا أسكن كوخا مثلك.

وتدخل القاضي....



(المطر ينزل بغزارة قالت لي أمي أشعل المدفأة يا...)

قرأ زهير هذه الفقرة في كتابه قراءة متأنية ثم توقف ليقول في نفسه:

- ها هو المطر ينزل حقيقة، لكن أين أمي؟

وهل توجد في كوخنا مدفأة؟!

وكـان الجـواب أن قـصف الرعـد فهـزّ أركـان حجـرة الدرس، وأطبق الصمت على أفواه التلاميذ في ارتياع، ، إلى أن دقّ الجـرس فخـرج الأطفـال إلى الـساحة مـسرعين في اتجـاه منازلهم...

صفير الرياح وظلمة السماء ينذران بثورة الطبيعة، امتطى بعض الأطفال السيارات المنتظرة، ورافق آخرون أقاربهم تحت المعاطف أو المطريات بينما بقي زهير في انتظار اللاشيء، وعندما هزمته نظرات الحارس خرج إلى الشارع مقتحما سيل المطر.

تنقل أسفل الشرفات وداخل الأروقة وصقيع المطر يصفع وجهه الوسيم من حين لآخر، حتى انساب الماء تحت قميصه البالي، ولدغته الريح من كوّة السروال الممزّق أسفله، تلك الريح التي كانت تبعث موسيقى الرعب فترقص لها الفضلات المتدفقة من فيض القنوات...

كان يتنقل من مخبإ إلى آخر وسؤال المعلم لا يبارح ذهنه:

- ماذا تفعل أمك؟

لمع البرق في ظلماء السحب وانهمرت الأمطار فلجأ زهير إلى قبو صادفه لكنه سرعان ما ابتعد منه فارا إلى خارجه وأنياب أحد الكلاب تلاحقه، وفي لمح البصر امتزج نباح الكلب بصوت (عجلات) السيارة التي صدمت زهيرا في بركة من الماء، في حين كان والداه يغادران المحكمة.

الأم المطلقة تقسم بأن زهيرا لها والأب يحرّم حياته ثلاثا إن ظفرت مطلقته بزهير، وخرجا يتسابقان للقبض عليه.

بدأت غزارة المطر تقل كما كانت تقل مسافة الشارع أمامهما، بينما كان عدد الأشخاص يتزايد حول مكان الحادث، يتأملون في صمت أشلاء طفل ويلعنون مخترع السيارة.

وقف كل منهما وسط الدائرة في مواجهة خصمه، صرخت الأم:

- رجله، ابني زهير..

وسقطت مغمى عليها، ، وارتمى الأب على حذائه يقبله مناجيا:

- زهير، ، زهير ابني.

اختلطت الأدوات المدرسية بأشلاء صاحبها ، كما امتزجت الدموع بالدم الدافق، الذي جعل بركة الماء الصغيرة تحمل ألوانا كثيرة تطفوا على سطحها ،لا يقرأ الرأي فيها سوى آيات الحسرة والحرمان.

نشر: جريدة (الشعب) العدد 6465

بتاريخ 11 أوت 1984.

ليلة حمراء

(القصّة الفائزة بجائزة في مسابقة

الذكرى 25 للاستقلال1987م بمدينة بوفاريك)

البناية العالية تنام في أحضان الظلام وعبد الله يصعد مدرجها بقدمين تلبسان الحفاء والرغبة تنشّطه حتى وقف على آخر درجة... غرق بصره في بحر من الدجى، إنه يسبح بيديه باحثا عن محيط وجدانه وسط عتمات الليل!

كـان دفء الفـراش يغـادر ضـلوعه لتحـلّ مـكانـه الـبرودة فارتعـدت فرائـصه، داهمتـه رغبـة العـدول عـن رأيـه ونـسيان موعدها ،لكن دوافع كثيرة حرّكت فيه العزيمة من جديد ، أخرج زفرة طويلة وهو يتذكّر عمله الحقير، ويستحضر باله شقاءه من أجل إسعادهم.

قال عبد اللّه في نفسه:

- لا يمكن أن أعود إلى الأسفل وقد عزمت على لقائها في مكان مرتفع بعد سنة من الانتظار.

ثم أردف في أمل وتفاؤل:

- سأقول لها : أطلبك بشيء واحد ، فهل تشائين؟

تقدم نحو الكوّة التي كانت ترسل من سطح العمارة موجات ضوئية مصحوبة بنفخات النسيم نحو الداخل المظلم، تذكّر فراشه المنثور في غرفته الموحشة بالطابق الأرضي للبناية التي يسكنها المحتلون فأطلق تنهيدة ثانية وهو يتسلّل إلى سطح العمارة بجسمه النحيف.

وقف على السطح مضطربا ينظر إلى نجوم السماء النشوى في كنف القبة الزرقاء، باحثا عن الباب الأخضر

الذي يظهر في الأفق ليلة القدر ويمنح كلّ من يسأله أمنيته التي طلبها كما تتحدث الأسطورة عن ذلك منذ أجيال وأجيال، نظر في كلّ الإتجاهات يبحث عنها... لكنّه شعر بانسياب مادّة سائلة بين أصابع رجليه، فقال في اشمئزاز وبصوت منخفض:

- يا للقذارة، الفرنسيون يتبولون فوق بيوتهم.

(ثم قال مستدركا):

- هل تسقط الأمطار والسماء صافية...

وفجأة وضع يده على فمه مجبرا نفسه على كتمان صرخة أوشكت أن تصدع السكون وتجفل الحواس، توقف قليلا والشعور بالقلق يعتريه والإحساس بالخوف يساوره، تقدم بخطى وئيدة نحو الأمام مبتلعا ريقه الجاف كاتما أنفاسه في صمت رهيب، وهو يحاول أن يتبيّن الحالة:

- يا الهي، لمن هذه الجثة السابحة في دمها؟!

ارتعشت أنامله وهي تتلمس السائل الذي أحس به منذ هنيهة، انه دم جزائري أعدم في الليلة على السطح، رفع يديه

نحو السماء متوسلا:

- رحمة بنا أيتها السماء، صعدت إليك لأرى فيك الباب الأخضر لدفن شقائي، لأطالبك بالنصر على الأعداء وإذ بي أجد الدم الأحمر...! فلتشهدي يا ليلة القدر على ما تصنعه الأقدار في أبناء شعبي وأمتي...لا، لا..

تأمل عبد الله ذلك المنظر في هلع وخشوع وضياء القمر يملأ الأفق ويعانق المرتفعات، ، ،

- لا شك أنّه المجاهد الذي اعتقله الطغاة منذ يومين.

نشر القمر ضوءه فأشرق أمامه وجه الشهيد فتذكّر عبد الله أخاه سعيدا حين قتلته العساكر ثم كشفت عن جسده أمام جمع من السكان الذين ستروه بنظرات الترحم، واستنشقوا عبير الدخان وألسنة اللهب تتابع البنزين المتسرب في مسام جسمه ،سعيد الذي استشهد مرتين ليحي ما دام الدوام... واستعاد عبد الله في ذاكرته شريط الأحداث، فرأى من خلاله ما وقع لأبيه عندما كان هو وأخوه صغيرين، وجاء فرعون العصر (القايد) يهدّده:

- بع البقرة، وادفع ما عليك من غرامة أيها الشيخ.

وأردف رفيقه (الشنبيط) متوعّدا:

- أونذهب بك إلى سجن (سركاجي).

قال سعيد بصوت مسموع في براءة الأطفال وجرأة الرجال وهو يبتعد هاربا:

- (القايد والشنبيط) أذناب الاستعمار.

غضب الشنبيط فهوي بسياطه على ظهر الأب المسكين، ثم تحوّل إلى جسم زوجته التي تدخّلت لحمايته، كانت آثار السياط على جسميهما تشكّل رسومات وخطوطا ،كأنها سجل تاريخي يروي ملاحم الظلم والطغيان عبر الأجيال.

وسار أبوه وراءهما راجلا وهو يحدّث نفسه:

- يداي موثقتان إلى ذيل الفرس وتلك بقرتي يقيّدها حبل (الشنبيط) كلانا مقيّد وكلانا يسير إلى المعتقل... لقد تركت بيتي وحيدا، ربما أعود في المساء بعد مقابلة الحاكم العسكري، أوربما لا أعود حيا أوميتا... الوداع يا أعزّ الأحباب.

الطفلان الصغيران وأمهما ينتظرون أسبوعا كاملا بأيامه ولياليه، ، وجاء اليوم الأول من الأسبوع الثاني ومعه الأب يجرّ رجلين تحملان هيكلا أنهكه التعذيب والعمل الشاق، كان

يضع منديلا على نصف وجهه ليخفي انتفاخ الوجنتين وزرقة في العينين أو كان يريد إخفاء يمين شاربه المحلّق بالشفرة عنوة، وربما قد أراد أن يستر كل هذه الآثار.

نزل عبد الله أدراج العمارة مسرعا ودخل غرفته يبحث عن علبة الكبريت، ثم خرج بعد تفكير طويل وبدأ يجمع القمامة من أبواب الشقق كعادته ويضعها أسفل مدرج العمارة الخشبي، ، ، سدّت منخاريه روائح الفضلات المتعفنة الممتزجة برائحة عرق جسمه الذي كان يتصبّب من جبينه، لم يخرج الفضلات إلى الشارع كسائر الأيام، لا شكّ أنه يضمر شيئا في نفسه....

ها هو لسانه يتحرك مبسملا ومكبرا وأصابع يديه تخرج عود الثقاب وتضرم النار في ورقة مضرجة بالنبيذ الجاف...

وضع عبد الله الورقة بين الفضلات ،وخرج من العمارة مهرولا فوجد الفجر يستقبله بصياح الديوك...

خطاه تمتد كامتداد ألسنة اللهب في مدرج العمارة التي كان يقوم بتنظيفها من الرجس والأقذار كل صباح..

لم يبـال عبـد الله بالإيعـاز الـصادر مـن قائـد الدوريـة العسكرية:

- قف... قف.

لاحقـه صـوت الرصـاص، حتى صـار جـسمه والـدم يتنـزّى منه كأنه حقل أزهار حمراء وبيضاء وخضراء...

لم يتمالك توازن جسمه، تمايل مختالا في مشيته قليلا ،ثم خرّ ساقطا والابتسامة الساخرة تفترش محياه، ، ،

أرسـل بـصره في نظـرات هادئـة إلى سمـاء المدينـة حيـث كانت ألسنة اللهب وضياؤه يبددان الظلام...

ابتسم قائلا قبل أن تفارق روحه بدنه:

- إنهـم يحترقـون مثلمـا أحرقـوا أخـي وشـردوا شعبي، واستشهد وليلة القدر راضية عني...

سفر في الذاكرة

رغم كل شيء، رغم ما حدث فالحياة تسير بانتظام، كأن شيئا لم يقع على وجه هذه الأرض، الربيع يعقب الشتاء كما ألفناه وأزهاره المختلفة الألوان تموت عند مقدم الصيف.

الناس يأوون إلى بيوتهم كما يأوي النمل ويختبئ في مغارته كلّما هبّت الريح الحبلى بالسحب ثم يخرج منها كأنه ينتظر ابتسامة سليمان وجنوده...

ذات مرّة نشرت جريدة خبرا يقول إن سمكا ملونا سقط

من السماء أثناء عاصفة هوجاء مرّت على بلد أروبي، ،

وذكرت أيضا أن كتلا من اللحم هوت من السماء على أرض لبنان، فشبعت القطط الحمراء من الحمائم البيضاء لحما ودما وو... وهزّني الخبر، فوجدت نفسي أسرع الخطى إلى مدرّسي أسأله تفسيرا لذلك:

- هل حقيقة توجد دواب تعيش في السماء؟!

نهرني مدرسي بلطف غامض:

- اهتم بدروسك ولا شأن لك بما في الأرض أو في السماء أيها النجيب الأحمق.

دفنت ذلك السؤال في أعماقي، لكن ذاكرتي كانت تبعثه كلما مرّ على مسمعي اسم لبنان أو اسم ذلك البلد الأروبي، فأحاول أن أقارن ما ذكرته تلك الجريدة بالمقولة الشهيرة للفاروق "إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة".

طوّقتني الحيرة بأفكارها المتناقضة حتى كدت أجني على أعصابي المرهفة بداء لم يصب به أحد من قبل...

قطع النزيل معي في الغرفة بالفندق حبل تفكيري قائلا

وكأنّه أدرك ما يجول بخاطري:

- لا ترهق نفسك بالتذكر والحديث عن متاهات الماضي.

فرأيت أن أحاوره لأنتشل تفكيري من بحيرة الهواجس والوساوس، قلت له:

- قد لا أوافقك إلى حد ما، سيما إذا كنت تعرف مبادئ النحو، فالماضي فعل مبن على الفتح غالبا، وفتح الماضي وتصفّح سجلاته يعيد الثقة لنفسي.

- حتى إذا كان أسود، وجذوره ميّتة؟!

- الأشجار تموت واقفة مهما امتدّت جذورها، والجذور الجافة تصلح للزينة عادة...

قاطعني مستفسرا:

- هل بقي من ماضينا ما يزيّن حاضرنا؟

قلت له مستفسرا:

- لم يستوعب فكري قصدك، أرجو التوضيح أكثر.

أجابني بعد صمت قليل بزفرة طويلة صدرت عنه،

سكت بعدها هنيهة ثم قال موضحا:

- ليس لنا حاضر كي نزينه رغم أننا نملك الصحاري والجواري... (إن الزمان الذي كان بالأمس يضحكنا صار اليوم يبكينا)، هل قرأت ما قالته الألمانية (هونكا) عن شمسنا التي سطعت على أروبا؟!.

- لكن ما السّر في ذلك؟

- الجواب واضح جدا، أننا فقدنا أدوات التزيين.

قلت له مازحا:

- دع عنك الوصف فلو سمعتك فتيات إسبانيا لقلن أنه بائع (ماكياج).

رد في هدوء:

- هن لسن في حاجة إلى ما تسميه (ماكياج) يكفيهن حسنا الدم الأندلسي الساري في أوصالهن.

- انه نفس الشعور الذي يساورني، إن الكثير من السكان هنا ينتمون إلى شجرة أجدادنا، أليس كذلك؟

- لا أستطيع الإجابة عن استفسارك، لأن طارق بن زياد

لم يترك لنا بطاقة تعريف...

قاطعني للمرة الثالثة:

- ربما نسيها في إحدى سفن جنده، فاحترقت عندما أضرم النار في مراكبه.

- لا، لا يا عزيزي، لو تجوّلت في مدينة غرناطة لرأيت ألف بطاقة لطارق.

- لا تجعلني أقف باكيا من ذكرى حبيب ومنزل وقل لي:

- ما اسمك؟

- اسمي رشيد.

- تشرّفنا.



كان رشيد في نهاية العقد الثالث من العمر، بعد أيام وبضعة شهور سيتّم الثلاثين من العمر، كثير التفكير والتأمل، أنهى دراسته الجامعية عند عتبة الماجستير في الحقوق، رغم الظروف القاسية التي تعرّضت دربه، تحدّى الخوف بكل أنواعه، سقط عدة مرات لكنه لم ينهزم،

يقوم من السقوط وهو أكثر عزيمة وإيمانا بأن الحياة لا تعني الأكل والشرب والنوم فقط بل إنها شيء أهم من ذلك، وراح يبحث جاهدا عن هذا الشيء الأهم الذي يعيش من أجله...

حلّ بأسبانيا ونزل فندقا متواضعا في الجزء الشرقي من العاصمة، لم يجد به سوى غرفة ذات أربعة أسرة، احتجز إحداها ليستريح من عناء السفر، قائلا في نفسه:

- صباح الغد أطلب من صاحب الفندق تخصيص غرفة لي وحدي، تحتوي على سرير واحد فقط.

سرح بتفكيره مليا يتأمل الغرفة الواسعة ذات الجدران الزرقاء والنوافذ البنيّة، تعلّق بصره بلوحة جميلة كانت مثبتة في الجدار المواجه لسرير، شعر بالراحة تسري في رئتيه وهو يتأمل الحديقة المرسومة في اللوحة، وكأنه يستنشق عبير ورودها.



- ألا يُستحب التعارف بيننا، ونحن تحت سقف واحد؟!

ردّ عليه رشيد وبصره مركز على اللوحة:

- المريض والضيف وعابر السبيل لا يسألون عن بطاقة تعريفهم، وأنت كالضيف نزلت الغرفة فلم تطاوعني نفسي لأسألك.

- الترفع عن الفضولية من شيم الأباة.

- قولك صائب لكن في غير هذا الزمان.

- الاسم مفتاح ذهبي للدخول إلى نفسية أي كائن، أوما رأيك رشيد؟

- ليس لي رأي غير الرغبة في الاستراحة الآن.

استسلم رشيد لسلطان الكرى الذي راود أهدابه الذابلة، بينما فتح الآخر حقيبة أخرج منها مذكّرة وقلما وبدأ يكتب بخط رقيق جدا كلمات لا يريد أن يقرأها غيره.



تسلّلت أشعة الشمس عبر شقوق النوافذ مخترقة الستائر في خيوط ذهبية سحرية دغدغت أهداب رشيد ففتح عينيه

على اللوحة بقصرها وحديقته الغناء، ، فرّك عينيه وقام من فراشه صوب اللوحة يبحث عن إمضاء راسمها، فلم يجد له أثرا، قال في نفسه:

- على كل حال فان هذا الرسام لا ينتمي إلى مدرسة بيكاسو، ، ،

التفت إلى فراش النزيل الذي حدّثه ليلة البارحة، فلم يجده.

استرعت انتباهه وريقة صغيرة على الفراش، حملها وشرع في قراءتها:

- اسمي جعفر... (إن عزّ في الدنيا اللقاء ففي يوم الحشر نلقاكم ويكفينا) إلى اللقاء...

ابتسم رشيد في غبطة سرعان ما تحولت إلى حيرة:

- من يكون جعفر هذا؟! إنه شخص غريب الأطوار حقا!! (بدأ يتذكر) نعم، لقد رأيته على الطائرة التي أقلتني مع المسافرين إلى هذا البلد.



- صباح الخير سيدي.

- عمت صباحا.

- هل كان نومك مريحا؟ ألا تشعر بالبرودة في هذا الشهر الغاضب؟

سأل صاحب الفندق ويداه على المحول الهاتفي تحرك مفاتيحه في لباقة ومهارة.

ردّ عليه رشيد في هدوء:

- إنه ليس غضبا فحسب بل ثورة يفجرها نوفمبر في الطبيعة كل عام، ومع ذلك فإن عواصفه تبعث موسيقى يستلذّها النائمون.

رفع صاحب الفندق رأسه المشتعل شيبا وقال لرشيد:

- يسرّني أن أراك تتحدث لغتنا بطلاقة، هل عشت كثيرا في أسبانيا؟

- ليلة واحدة فقط (ثم أردف رشيد قائلا في نفسه بحسرة مكبوتة):

- أنا هنا من القرن الثامن الميلادي.



من المرافق التي كان يتردد عليها نزلاء الفندق نادي الموسيقى، الذي تقدّم فيه وجبة الفطور الصباحية.

وفيه جلس رشيد في زاوية يتناول فطوره بينما جلست في الطاولة المقابلة له عائلة أسبانية تتكون من الأب وزوجته وابن لايتجاوز العاشرة من العمر.

انهمك الأب في تصفح جريدة الصباح، بينما طلبت الزوجة سماع موسيقى معينة، وأنشغل الطفل بحلّ الكلمات المتقاطعة في دفتر صغير.

انسابت موسيقى (الفلامنكو) في مسمعي رشيد وحرّكت أوتار قلبه، فشعر بعاطفة جياشة تحمله لتنفيذ وصية أمه التي تركها في بلدته تسعى في تنظيف مدرجات العمارة للحصول على لقمة العيش:

- أخوك علي، الطفل الذي عرفت به معنى العاطفة السامية لأول مرة، يعجز اللسان عن وصف أمومة الابن البكر، ، (وتضيف الأم التعسة قائلة):

- لقد ودّعته على باب باخرة أسبانيا ، أبحث عنه

يا رشيد هناك ستجده، ، إني في انتظاركما.

توقف عن تناول الحليب والفطائر وصار يحوم ببصره حول العائلة الجالسة قبالته، يختلس بنظرات متتالية بعض الصور من ملامحهم قائلا في نفسه:

- ليس غريبا أن يكون هذا الرجل هو أخي علي، الذي جاء إلى هنا وعمري خمسة أعوام.

- نظر صوبهم جيدا، كانوا محلّقين في جو التأمل، كل في عالمه، فخشي أن يزعجهم بسؤاله وهو نفسه لم يجد صيغة للسؤال يمكن أن تبرّر موقفه أمامهم (قال في نفسه):

- قد تكون تلك المرأة زوجته اقترن بها هنا فأنجبا هذا الطفل الوسيم، هل يعرف نطق كلمة عمّي؟!

مرّ به صاحب الفندق سائلا:

- هل تقيم هنا ليلة لأخرى يا سيدي؟

أجابه رشيد دون تردد:

- نعم، نعم وفي غرفة لوحدي من فضلك؟

قال صاحب الفندق متصنّعا التأسف:

- الغرف ذات السرير الواحد محجوزة طوال السنة.



كتب جعفر في برقية عاجلة إلى رئيسه بأرض الوطن:

(رشيد يحتكّ بعائلة أجنبية.. زار في يومه الأول سفارة أجنبية وفي اليوم الثاني إحدى الجامعات وفي اليوم الثالث رحل إلى أقصى الجنوب ودخل إذاعة (ملاقا)...اتصالات مشبوهة لا يمكن حصرها....انتهى).



السماء عبوسة تطل على الأرض بثوب أسود نسجه المحيط الأطلسي، الذي يطلق من حين لآخر زفرات باردة ترتعش لها الأبدان، بينما كانت الأرض في شغل عن ذلك كله، الوديان تسبّح والوهاد والسفوح تتوسد في اختيال الجبال التي كانت تستعد لتلبس أعلى قممها التاج الأبيض من الثلج.

الشوارع تكاد تخلو من المارّة في كنف النهار عدا بعض الأماكن العمومية بروادها حيث يتجمعون ويتبادلون الآراء حول مواضيع شتى، وبعضهم يتوجه إلى ميدان مصارعة الثيران لقضاء أوقات مسليّة بعد الزوال، يستمدون منها راحة النفس التي أعياها عناء الحياة اليومية المعقّدة، كما يستمدّون من المشاهد المثيرة للمصارع وهو يغامر بنفسه من وراء حجاب أحمر يثير صبر الثيران، حرارة وجدانية تتحدى البرد الشديد الذي ينتظر عناقهم خارج المحلات العمومية وميادين التسلية واللهو.

أسبوع بارد ونفسية مضطربة تعيش في غربة بعد أن تعوّدت على الإخوان والخلان، ،

هل يبحث رشيد عن جعفر ليؤنسه،لكن ما يدريه لعلّه ترك هذه المدينة وسافر إلى مدينة أخرى.

تذكّر ما قاله جعفر في الغرفة:

- (أبناء عمومتك من الأعراب يتخلصون من جلدتهم في أول يوم يجدون فيه أنفسهم في الخارج...

- ماذا تعني؟

ويقهقه جعفر:

- حذار أن تقع في الشباك الذي يستولي على دراهمك، ، ، بل يصطاد صحتك بمرض (السيدا)

- لكن هذا المرض لم يصب أثرياء وأمراء وطننا الكبير رغم أنهم ينامون في مخادع(موناكو) و(بالما) أكثر من نومهم في فراش بيوتهم...

- السبب أن المخادع هناك معقّمة وروادها محترفون، ، ، والأمر هنا غير الأمر هناك...

في تقوى المؤمن ورهبانية القديس كان رشيد ينفر منهنّ نفورا شديدا، كأنه يبحث عن ظل في يوم لا ظل فيه لغير الرحمان...

الشعور بالقيء ينتابه كلما صادفته رائحة الفجور الممزوجة برائحة الخمر التي تفوح منهن إلى مسافة بعيدة، ، فتثير في نفسه الاشمئزاز.

قال في نفسه:

- على شواطئ هذه البلاد أحرقت تذاكري كما أحرق طارق سفنه، في هذه الديار سكن أجدادي قرونا وأبحث اليوم

عن غرفة تأويني فلا أعثر عليها... لا بد أن أقيم مع الآخرين من أي جنس، هكذا تريد الحياة، الغربة في كل زمان و مكان، في غرناطة وخيخون، ما أشبه الأمس باليوم... أين المفرّ الألمان أمامكم والنمسا وراءكم والكرة بينكم..؟

التفت رشيد خلفه على حين غرّة فرأى في لمح البصر شخصا بعيدا كان يرقبه، وقف ليلتفت مرة ثانية ثم يتأمل ذلك الشخص الذي صار يتبعه...

- إنه ذلك الشاب؟ نعم، جعفر.

حاول جعفر أن يفلت من نظرات رشيد التي كانت تحاصره لكن أعمدة القصر المتراصفة حالت دون ذلك فأكمل سيره في اتجاه رشيد الذي وقف ينتظره، إلى أن وصل:

- أنت هنا؟!
- السلام والرحمة يا جعفر.
- صدفة عجيبة!
- بل قل خطّة عجيبة أن نلتقي هنا بعد فراق في مدريد.
- هيا لنشرب كأسا نخب لقائنا.
- ذلك ما يفعله....، أما نحن فلم نتعرف على بعضنا بعد.

قال جعفر وهو يقود رشيد إلى موزع المشروبات:

- أما أنا فأعرفك جيدا.

أنتاب رشيد شيء من القلق والحيرة في أمر هذا الشاب الذي يتبعه كظله، فقال في نفسه:

- انه يسجّل تحركاتي ولا شك، يجب أن أصارحه في الأمر ليريح نفسه من عناء الترصد والمراقبة، ،

وقال لجعفر:

- إن اسمك يذكّرني بوزير لهارون الرشيد.

- جعفر البرمكي، لا تخش عليّ ،مهما كانت نهايتي فلن تبلغ مستوى مأساته.

قال رشيد في نفسه:

- "يا له من ذكي" (ثم قال له): لماذا؟

أجاب جعفر مبتسما:

- لست طامعا في حكم أو في وصال... ثانية، فالقصر مملوء بالجواري كما ترى..

أجاب رشيد في كلمات مملوءة بالحسرة:

- ذكر الجواري، تزييف حشره المغالطون في تاريخنا المشرق.

- أنت درست الحقوق أما التاريخ فله من يختصّ به.

قال له رشيد:

- فعلا، انّك تعرف عني أشياء كثيرة!!

- ألم أقل لك؟!

- لكن عندما يريد المرء أن ينبش قبور الذاكرة فليحافظ على رميم العظام.

- ماذا تعني يا رشيد؟!

- هارون الرشيد كان يحجّ عاما ويغزو عاما آخر.. ولم تشغله الجواري والقيّان التي أضافتها الأقلام الغازية إلى أيامه الذهبية، ثم ألا ترى أن حكامنا اليوم يحجون إلى موسكو واشنطن عاما ويسفكون دم إخوانهم عاما آخر؟!، أتمنى أن تكتب هذا الكلام في مذكرتك يا جعفر.

وضع جعفر قلمه في جيبه بعدما أخرجه ليرسم به بعض

معالم قصر الحمراء:

- كلامك خطير يا رشيد!

- ماذا تقصد؟

- أنت خطر، أفكارك...

قاطعه رشيد في غضب ممزوج بالسخرية وقد أيقن أن جعفر من رجال المخابرات:

- إذن أكتب أيضا: هذا الحيوان الناطق خطر، استعملوا المبيد المناسب له كما هو الحال مع الحشرات والفئران.

وراح جعفر يستنطقه بطريقة غير مباشرة:

- كلامك غريب يا رشيد.

- أليس غريبا أن نقتل النحل في الأزهار، أن نغتال الأمل في الأفكار...؟!!

طلب جعفر فنجان قهوة فجاء به النادل في الحين، حمله إلى شفتيه وأحتسى جرعة منه ثم قال لرشيد:

- إني أستعين بجرعات القهوة لأنشط أعصابي

كي تستوعب كلامك (ثم أردف بعد حين) ومع ذلك فإنها عجزت عن تفسير كلامك.

وقف رشيد كأنه يريد الانصراف ثم استدرك قائلا:

- ولو شربت بحرا من القهوة لما وجدت له تفسيرا، ما دامت أفكارك مقيّدة.

تساءل جعفر في شيء من الاضطراب:

- من يقيّدها؟!

- السلطة التي تعبدها، التي تأمرك فتطيع دون مناقشة.

قال جعفر وقد عاد إليه هدوءه:

- اجلس لنتفاهم ولا تترك الحماقة تقيّدك.

عاد رشيد إلى مكانه وهو يعدل من هندامه، كان يلبس بذلة رمادية اللون ورباط عنق بني، بينما لفّ جعفر جسمه بمعطف جلدي أسود اللون وسروال في زرقة السماء من نوع (دي لاي).

- وأنت أي سلطة تعبدها؟!

رد رشيد في خشوع وسكينة:

- إن حياتي ملك لخالقها، إنها زيتونة لا شرقية ولا غربية.

مرّت لحظات صمت وتأمل، كان كلّ منهما يستنطق ملامح الآخر، ثم أردف رشيد قائلا:

- هل يشرفك أن تحمل على جسمك اسم (تل أفيف) وأنت تنطق لغة القرآن؟

- ماذا تعني؟

- اسم سروالك!

ضحك جعفر ضحكات متتالية ثم صفّق بيديه، استغرب رشيد هذا الردّ من جعفر، ولقد كان يظن أنه يقوم في الحين يشتري سروالا جديدا يلبسه بعد أن يلقي بالأول بعيدا، ثم قال في كلام خافت:

- صدقت يا شيخ محفوظ، شباب ضائع في متاهات الغزو الفكري بلا شعور أو.....

قاطعه جعفر وقد خطف سمعه شيئا مما كان يقول:

- لكن الشيخ الغزالي رفع الالتباس حول هذه النقطة.

- كيف؟

قال:

- إن المواد المصنوعة في العالم تعتبر علما لا وطن له.

قال رشيد في ابتهاج:

- لقد صدق الداعية، لكن الأسماء لا تنتمي إلى علم الصناعة.

- باغته جعفر قائلا:

- لقد رأيتك تتردّد على الشيخين ناصر وعبد القادر، فما السرّ في ذلك؟

فوجئ رشيد بهذا الكلام وحاول أن يخفي دهشته وهو يجيب في تلعثم:

- اطمئن لا تخش على منصبك، إنهم رجال دعوة وليس طلاب دولة.

- أنك لم تجب عن سؤالي بعد.

كان رشيد يُتابع حركات يدي جعفر، كأنه يخشى القبض عليه، وفي الحين تذكّر أشياء كثيرة فاستحضر

عظمة الله وخشيته وقال في جد صادق:

- السرّ الوحيد هو أن المذكورين يتكلمان من نور الله وليسا كالبعض من زملائهم الذين يساهمون في تخدير الأمة إلى حد كبير...

صمت الاثنان بعد اقتراب فريق الجوق الموسيقي الذي كان يحوم حول الجالسين جماعات جماعات، يحمل بعض أفراده آلات موسيقية بأنغام شتى من موسيقى (الفلامنكو) ويخاطبون رواد القصر بأغانيهم الرقيقة الكلمات، القوية المعاني، ، الكلمات العاطفية الحساسة التي تثير في نفوس الحاضرين بهجة هذا القصر، عندما كان الأندلس كالحديقة الغناء الحافلة بالأزهار التي ترسل شذى رائحتها الزكية في كل الاتجاهات، فيشمّ سكان ضفة المحيط الهادي نسيم المحيط الأطلسي المصحوب بروائح الأندلس الحضارية.

كانت الفرقة الموسيقية تعيد بألحانها ذلك الماضي في صورة حزينة فتخفق أفئدة الحاضرين وتمتد أيديهم إلى جيوبهم لتخرج قطعا نقدية تقدمها لأعضاء الفرقة تشجيعا وطلبا المزيد من الألحان العذبة والكلمات الشفافة.

- إن حيرتك تثير الريب يا رشيد.

قال وعيناه معلقتان على التمثال الذي يخرج منه الماء:

- إنما يحيّرني أنك تتبعني كالظل.

قال جعفر معلقا:

- وهزلك يثير الجدّ أيضا.

غادرت فرقة الموسيقى المكان فشيّعها الاثنان بنظرات تحمل معان كثيرة ثم قاما في الحين يسيران في اتجاه المدينة الجديدة، مكثا مع بعضهما ثلاثة أيام كل منهما يترصد خطوات الآخر ويحاول أن يجد مبرّرا لتصرفات وأقوال رفيقه.

اجتمعا مرّة على مائدة العشاء فقال رشيد بعدما فرغا من الأكل:

- رأيتك تزور المقابر، هل لك أقارب في الديار؟

أجاب جعفر في حسرة:

- إذا ضاقت بك الأمور عليك بزيارة القبور.

- هل أنت في ضيق؟

- لا، أبدا لكن هناك ما يقلقني.

- قل وسرك في بئر.

- أخشى العودة دون نتيجة.

قال رشيد ممازحا:

- على كل إن رحلتك لم تكن إلى الفضاء، إنها لم تكلّفك إلاّ قليلا (ثم أردف مستدركا وقد ارتاب في الأمر، ظانا أن النتيجة التي يريدها جعفر هي القبض عليه).

- إذا كنت تريد شيئا مني فأنا أمامك، اقبض واسترح.

ابتسم جعفر وغنّى في صوت متواصل كلمات من موشح: "قم تر براعم اللوز..."

توقف عن الغناء وتوجه بعدئذ نحو رشيد:

- اطمئن، إني أبحث عن شخص غادر الدنيا (قال وهو يخرج وثيقة) انظر ماذا ترى فيها، اقرأ المهمّة التي كلّفت بها.

تأملها رشيد قائلا:

- سبحان الله، كلنا في مجال البحث ساع!!

- على من تبحث أنت؟

- عن أخي علي، وأنت ما اسم فقيدك؟

قال جعفر مجيبا في تفاؤل:

- وأنا أبحث عن قبر شهيد يدعى الضابط سي مصطفى استشهد أثناء القيام بمهمّة في هذه الديار.

- رحم الله الشهداء.

- فلنتعاون يا رشيد.

- كيف ذلك وأحدنا يبحث في المقابر والآخر يفتش عن أخيه في وجوه الأحياء؟!

- الشهداء ليسوا أمواتا.

- "بل أحياء عند ربهم يرزقون".

اتفق الاثنان في البحث عن المفقودين،دون أن يسألا بعضهما عن قصة كل مفقود، ثم حدّدا مكانا للقاء بعد أسبوعين،وبدأ رشيد في تنقلاته من مدينة إلى أخرى يبحث في الدفاتر والسجلات بدور البلديات ويتفرس قوائم العمال ووجوههم بالمعامل والشركات علّه يعثر على أخيه علي أو من يدلّه عليه.

وكان جعفر يتنقل بين مقابر غرناطة واشبيلية وقرطبة

وغيرها من المدن يبحث في سجلات الوفيات وفي الأسماء المكتوبة على شواهد قبور المسلمين.

التقى ببعضهما بعد أسبوعين في المكان المحدد بقصر الحمراء ولم يعثرا على أثر أويجدا رأس خيط يمكنهما من الوصل إلى أحد المفقودين، اتّهم كلّ واحد منهم الآخر بالتقصير في البحث عن ضالته ثم أقسما يمينا بأنهما يبحثان عن المفقودين معا في كل مكان يمرّان به،

قال جعفر قبل أن يفترقا لكتابة الرسائل إلى الأهل.

- لقد وعدني رئيسي برحلة لحضور المونديال، في بلاد العجائب إن وجدت رفاة الشهيد.

قال رشيد في أسف لما سمع ذلك لقد سبقك إليها (كولومبس). هيا دعنا من المغريات ومن كأس العالم وحدثني عن كأس الألم وجولتك بين قبور الموتى.

- لقد كانت دهشتي كبيرة وأنا أشاهد قبور العظماء، أبطالا وعلماء أسهموا في الحضارة الإسلامية، وآلاف القبور لمسلمي الأندلس، نعم إنها أيام خلت بعزّها ومجدها ولله

در الشاعر الذي قال:

"خفف الوطء فما أظن أديم ❖❖ الأرض إلاّ من هذه الأجساد".

لقد كانت جولتي مثيرة بين أطلال الأجداد، وكيف كانت جولتك؟

أجاب رشيد في شيء من الاعتزاز حتى امتلأت عيناه بفيض من دمعها:

- رغم أني لم أعثر على أخي فإنني وجدت إخوانا كثيرين في الأسماء والصفات، وفي الدماء التي تسري في أوصالهم ورغم أنهم يتنفسون هواء هذا البلد ويحملون جنسيته وينطقون لغته فانك تقرأ في ملامحهم آيات الاغتراب والحنين إلى الأصالة.

حان وقت الغذاء فاتجه الاثنان بطلب من رشيد إلى أقرب مطعم، بعد الانتهاء قال:

- يؤسفني أن أعود خائبا وقد وعدت أمي بالعودة مع أخي علي مهما كان الأمر.

- ستعفو عنك، قلب الأم مسامح، يا ليت قلب رئيسي

كقلبها ، إذا لم أعد بأخبار الشهيد ، سأحرم من حضور ألعاب كأس العالم.

دفع رشيد ثمن الأكل وخرجا يتفسحان قرب القصر، راقتهما الحديقة الواسعة ذات الأرض المعشوشبة والأشجار المثمرة وأخذ حديثهما يتشعب في كل اتجاه تشعب السواقي الرقراقة بمياهها بين الأعشاب ومن حين لآخر يصمتون للتمتع بزقزقة العصافير التي كانت تسبّح للرحمان وتحمده على هذا النعيم.

قال جعفر معترفا لرشيد :

- كنا نظن أنك تبحث عن....(صمت قليلا فاستعجله رشيد في مواصلة الحديث) فاستأنف جعفر:

- اعتقدنا أنك مسافر لمبايعة خليفة هنا ،فكلّفت بمراقبتك في الأسبوع الأول من قدومك.

قال رشيد في ابتسام:

- سامحكم الله(ثم استدرك قائلا) ليتنا نجد من نبايعه قبل أن نندثر ونصبح في خبر كان كقوم عاد وثمود.

(وأردف بعد صمت حزين):

- كم لك من مهمّة في هذه البلاد؟!

كان جعفر منشغلا عنه في تأمل كتابات على باب قديم متآكل:

- يبدو أنه باب مقبرة.

اقتربا منه، فتأكدا من ذلك دخلا بعد إزاحة الباب بصعوبة:

- السلام عليكم، أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

فتش معي يا رشيد، كفانا من الشعر فقد ارتوينا، حفظنا القوافي جهارا فنسينا.

طاف جعفر ورشيد بين القبور ينزعان الحشائش عن أحجارها وبناءاتها الرخامية المزخرفة بنقوش تعود إلى أيام عبد الرحمان الدّاخل، تبدى الفن المعماري الإسلامي في أروع صوره المتقنة.

- سأذهب اليوم إلى دار الإذاعة وإلى مقرات الصحف لنشر بلاغ للبحث عن أخي علي، هذه آخر فكرة يتغذى منها أملي في لقائه.

- خمسة وعشرون سنة ونيف مرّت على غيابه؟!

- ألا ترى بأنه يكون قد سافر إلى بلدان أخرى؟ على كلّ سأرافقك إلى وسائل الإعلام.

- ماذا أقول لأمي التي تنتظر في شوق ملتهب على أحر من الجمر.

أنظر يا رشيد هناك، تأمل جيدا ، نعم إنه رسم نجمة وهلال على بناء ذلك القبر، يارب وليكن قبر الشهيد الذي أبحث عنه، هيا نقترب منه.

استقبلهم بردائه الأخضر الذي لبسته التربة الثرية بقطرات الندى، يظهر منه كومة مرتفعة من التراب مغطاة بأنواع مختلفة من الحشائش والزهور البرية، كأنها تاج على رأس ملك نائم على سجادة خضراء والأشجار حوله كالحرس الساهرين.

أبعد جعفر ذرات التراب اللاصقة على قالب الرخام الذي كان يحمل كلمات شاهدة على صاحب القبر مع مرور الزمن.

بدأت الحروف تبرز من خلف التراب ثم أصبحت كلمات، فارتعشت الأيدي واضطربت الشفاه وخفقت الأفئدة في ضربات

عنيفة متتالية وامتلأت العيون بالدموع!

قرأ رشيد وجعفر الحروف في تهجية وتلعثم:

(هنا ينام الشهيد علي الميسراوي المدعو سي مصطفى).

توقفا عن القراءة ينظران إلى بعضهما في بلاهة لايصدقان، أعادا القراءة بأعصاب منفعلة وجوارح مرتجفة، قال جعفر:

- هو... إنه سي مصطفى الذي أبحث عنه، هل هو أخوك يارشيد؟.. لم نكن ندري بأن له أهل على قيد الحياة، ،

تساءل رشيد في استغراب وبهجة:

- هل صحيح يا أمي أن أخي علي شهيد؟

- أتشكّ في ذلك يا رشيد؟

- اللّه أكبر.

- لقد قيل لنا بأن عائلة سي مصطفى مزقتها الشظايا...

- هنيئا لك الرحلة إلى...

- ليتها كانت تذكرة إلى الجنة يا رشيد، ما أروع وسام الشهادة.

- لقد غيّرتك المواقف يا جعفر.

ضحك جعفر طويلا ثم توقف فجأة:

- أرأيت كيف تسخر منا الأقدار، كنا في اختلاف كبير مع أن تاريخنا واحد وهدفنا واحد.

تعانقا في حرارة لا مثيل لها وهنأ كل منهما الآخر ثم شرعا يفكران في العودة والوحدة تشملهم والأخوة تولد في روحيهما من جديد.

نشرت سنة 1982

الفهرس